المصطلح النقدي الغربي وأثره في الدراسات النقدية العربية

[بين القبول والرفض]

إعداد الدكتور

هاني خميس محمد بلال

المصطلح النقدي الغربي وأثره في الدراسات النقدية العربية

(بين القبول والرفض)

هاني خميس محمد بلال

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على مدى صلاحية المصطلح النقدي الغربي للدراسات النقدية العربية، وهل جنى لها ؟ أم جنى عليها ؛خاصة في ظل تبني النقاد العرب المناهج والنظريات الغربية، ومحاولة تطبيقها – طوعا وغصبا – على النصوص العربية دون مراعاة للمرجعيات والخصوصيات التاريخية لهذه المناهج والنظريات، وكذا دون مراعاة لخصوصية الإبداع العربي والمتمثلة في لغته ومجتمعه وطريقة إبداعه، حيث بدا إن الإعجاب والانبهار بالغرب وحضارته دعى بعض رواد النهضة العربية الحديثة إلى محاكاة الغرب محاكاة تامة أثرت على النقد العربي تأثيرا سلبيا كبيرا؛ لذا حاولت الدراسة توجيه النظر إلى المصطلحات النقدية العربية الموجودة في كتب النقد ،وكذا الدعوة إلى توليد مصطلحات نقدية عربية خالصة ،كما دعت إلى رفض المصطلح النقدي الغربي في الدراسات العربية ؛لأنها لم تضف لها وإنما جنت عليها جناية واضحة وكانت سببا في إيجاد حالة من الجدل بين الأدباء والنقاد و بين النقاد أنفسهم.

الكلمـــات المفتاحيـــة : المصـطلح النقـدي / المصـطلح الوافـد / رفـض المصطلح الغربـي / الدراسات النقدية الحديثة / أثر المصطلح الغربـي فـي النقد العربي .

Western monetary term and its impact on Arab monetary studies

(between acceptance and rejection)

Hani Khamis Mohammed Bilal

Abstract:

This study aims to determine the validity of the Western critical term for Arab critical studies, and is it profitable for it? Or did he gain it, especially in light of the Arab critics adopting Western curricula and theories, and trying to apply them - voluntarily and forcibly - to Arabic texts without taking into account the references and historical peculiarities of these curricula and theories, as well as without taking into account the specificity of Arab creativity represented in its language, society and method of creativity, It seemed that admiration and fascination with the West and its civilization called some of the pioneers of the modern Arab renaissance to emulate the West completely, which had a great negative impact on Arab criticism. It called for the rejection of the Western critical term in Arabic studies, because it did not add to it, but rather caused a clear crime and was the reason for creating a state of controversy between writers and critics and among the critics themselves.

Keywords : almustalah mutasilatan / almustalah alwafid / rafad almustalah algharbii / aldirasat alnaqdiat alhadithat / 'athar almustalah algharbii fi alnaqd alearabii.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، فاتحة كل خير، وتمام كل نعمة، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، وكان كلامه الحكمة وفصل الخطاب، سيدنا محمد . صلى الله عليه وسلم . وعلى آله وصحبه أجمعين... **وبعد** ،

فإن من الأمور التي تبدو واضحة من مسيرة الأدب عبر عصوره المختلفة، أنه يعكس التطور المستمر في الحياة عامة، ذلك إذا سلمنا بأن الحياة تتغير وتتطور، وأنها تختلف من عصر إلى عصر باختلاف الثقافات والبيئات والأحداث، ومن ثم تبرز أهمية النقد الأدبي في خدمة الحياة؛ لأنه هو الذي يوجه دفة الإبداع الأدبي، ويساعده على النمو والتقدم والازدهار، غير أن من يتابع النقد الأدبي العربي في عصرنا الحاضر يجده يعاني جملة من المشكلات والأزمات، من بينها . إن جاز لي التسمية . مشكلة المصطلح النقدي الغربي الذي اقتحم الدراسات النقدية العربية بصورة كبيرة، فحول النقد إلى إجراءات معقدة، لا تناسب حياتنا الأدبية ،ولا لغتنا العربية، ولا تجني لأدبنا إنما جنت عليه بصورة جلية ظاهرة .

الأمر الذي دعاني إلى موضوع الدراسة :(المصطلح النقدي الغربي وأثره في الدراسات النقدية العربية ، بين القبول والرفض) ،وقد حاولت من خلاله تثبيت هويتنا العربية، وتوجيه الأنظار إلى النقد القديم، من أجل إتاحة الفرصة له ؛كي يقوم بعمله في كشف النصوص وتذوقها، بدلا من هذا العناء والتكلف الذي يمارسه أتباع النقد الجديد في مجتمعاتنا العربية ، وبهذا اقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى : تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة تسبقهم مقدمة ، وتفصيلها كالتالي:

التمهيد : المصطلح النقدي المفهوم والإشكال.

المبحث الأول: المصطلح الأجنبي بين القبول والرفض.

المبحث الثاني: أثر المصطلح النقدي الوافد في الدراسات النقدية العربية الحديثة.

المبحث الثالث: جذور المصطلح النقدي الغربي في التراث العربي .

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة مجملة .

ثم جاء فهرس المراجع ، ففهرس الموضوعات .

وبعد .. فإني أرجو أن يكون عملا مقبولا ، يضيف إلى الأعمال النقدية لو شيئا يسيرا والله من وراء القصد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

التمهيد

(المصطلح النقدي: المفهوم والإشكال)

يعد المصطلح النقطة التي يلتقي عندها أهل كل علم، وأهميته تبدو بالغة في فهم المعنى وتحديد الدلالة ،والعلم به والاتفاق علي معناه ضرورة علمية ومنهجية تساعد على تقريب مسافة الفهم وتجنب اللبس والغموض ،وفي ذلك يقول **التهانوي** "...إن أكثر ما يحتاج إليه في تحصيل العلوم المدونة والفنون المروجة إلى الأساتذة هو اشتباه الاصطلاح، فإن لكل علم اصطلاحا خاصا به إذا لم يعلم بذلك لا يتيسر للشارع في الاهتداء إليه سبيلا وإلى إنغامه دليلا ،فطريق علمه إما الرجوع إليهم أو إلى الكتب التي جمع فيها اللغات المصطلحة..."[١]

والاصطلاح في أبسط تصور لمعناه لا يخرج عن كونه :" اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل من موضعه الأول ، وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر، وقيل الاصطلاح :اتفاق طائفة على وضع اللفظ إزاء المعنى، وقيل :الاصطلاح إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر ؛ لبيان المراد ،وقيل : الاصطلاح لفظ معين بين قوم معينين " [٢].

---

[١] موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، محمد بن علي القاضي التهانوي المتوفى سنة ١٥٨هـ ،تحقيق د.علي دحروج مكتبة لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٦سنة ، ص ١١١. و في لفظة(انغامه) نظر؛ حيث وردت هكذا في متن الكتاب، والمعنى بها لا يستقيم ، و في تحقيق لطفي عبد البديع ، جاء بلفظة (فهمه) بدلا من انغامه، ويبدو أن المعنى يستقيم بالثانية فيكون المقصود انفهامه من الفهم.

[٢] . التعريفات , الشريف الجرجاني , تحقيق محمد صديق المنشاوي , دار الفضيلة , القاهرة , ص ٢٨ .

وشرط وجود المصطلح هو اتفاق أهل التخصص على ماهيته ؛ لأنه البداية التي ينطلق من عندها أهل كل فن ،فالمصطلحات هي: " مجموعة الألفاظ التي يصطلح بها أهل كل علم من العلوم على تصوراتهم الذهنية الخاصة بالحقل المعرفي الذي يشتغلون فيه ،وينهضون بأعبائه ويأتمنهم الناس عليه ،ولا يحق لأحد أن يتداولها بمجرد إظهار النية بأنها مصطلحات في ذلك الفن إلا إذا طابق بين ما ينشده من دلالة لها وبين ما حدده أهل ذلك الاختصاص لها من مقاصد تطابقا تاما "[1] ؛لذا يبدو ضروريا أن يتفق أهل كل فن على مفهوم واحد محدد ودقيق ليعبرعن دلالة واحدة ،وعند رؤية المصطلح أو سماعه تحضر في الذهن دلالته ومعناه ،دون تخبط ذهني أو فرض احتمالات لتصوره، فلا يمكن أن نُسأل عن مصطلح ، ثم نجيب أنه مختلف في معناه ،لأننا إن لم نتفق على المصطلح التي نقيم به العمل الأدبي لم نصل في النهاية إلى أحكام نقدية مقنعة ،وإنما ستكون العملية النقدية أقرب إلى الفوضى والغموض.

ومن ثم فقد عني الدارسون العرب بالمصطلحات عناية كبيرة ،خاصة بعد أن تشعبت العلوم وكثرت التخصصات واختلط العرب بغيرهم ؛ الأمر الذي تطلب مصطلحا نقديا جديدا يكون نقطة التقاء بين الثقافة العربية وغيرها من الثقافات غير العربية ،ولا شك أن ظهورالمصطلح العلمي يمثل مرحله متقدمة من النضج والتأمل والوعي، فالمصطلح هو تعميم أو تجريد ذهني لظاهرة أو حالة أو إشكالية علمية أو ثقافية ،ولذلك فهو يقترن بنضج ظاهرتي التعريفات والتصنيفات العلمية في أية ثقافة إنسانية ،وهو

---

[1] الأدب وخطاب النقد , عبد السلام المسدي ,دار الكتاب الجديد ,بيروت لبنان , الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٤م ,ص ١٤٦.

من الجانب الآخر مظهر من مظاهر الوحدة الذهنية والثقافية للأمة كما يمثل في الجانب الآخر قاسما مشتركا بين الثقافات الإنسانية المختلفة فلغة الاصطلاح ملتقى الثقافات الإنسانية ونقطة التقاء اللغات المتباعدة...[١]

أما عن المصطلح النقدي فهو ضرب من المعرفة والتعليق والحكم والتقييم للإبداع الأدبي ،ومن ثم يكون الحديث عن ذلك المصطلح النقدي ذي الخصوصية المفهومية الناجمة عن ارتباطه بالمعرفة الأدبية أو مجال التفكير في الأدب نظريا وتحليليا ، وبهذا المعنى عرفه **يوسف وغليس** بأنه: " رمز لغوي (مفرد أو مركب) أحادي الدلالة منزاح نسبيا عن دلالته المعجمية الأولى يعبر عن مفهوم نقدي محدد وواضح متفق عليه بين أهل هذا الحقل المعرفي.."[٢]

وعليه فإن المصطلح النقدي ينبغي أن يتفق عليه النقاد و يكون واضحا ودقيقا في معناه بحيث يبدو لأهل التخصص أنه أداة تساعد على التطور المعرفي والثقافي في الحقل النقدي ؛لأن تحديد مصطلح والاتفاق على ماهيته هو المنطق الأول للتفكير والتطوير، لكن تبدو الإشكالية الكبرى التي أصابت النقد العربي الحديث تكمن في اختلاف المصطلح الواحد في مفهومه ودلالته من باحث إلى آخر حسب درجة وعيه بالمصطلح ومنهجه في الدراسة ، الأمر الذي يجعل الدراسات النقدية الحديثة تسير في اتجاهات مختلفة تحددها أدوات تعبيرية غير محددة، تحكمها مجموعة من العوامل

---

[١] . ينظر اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م ، ص ١٧٠.

[٢] . إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد ، يوسف وغليس ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م ، ص ٢٤.

التي تتصل بتنوع الثقافات ،وقد أدى ذلك إلى شيوع الإبهام والغموض حتى بات من الملاحظ ... أن بعض المترجمين يقدمون على الترجمة بدون تسلح كاف بأدواتها ومطالبها ،ولذلك يعمدون إلى الترجمة الحرفية أو الترجمة الركيكة، وهذه الترجمة الخاصة في نقل المفهوم والمصطلح تمثل أضعف الوسائل الاصطلاحية؛ لأنها تحبس اللفظة في جمود عديم الفائدة، ومن نتائج الترجمة غير الدقيقة ومن نتائج التسرع والارتجال في وضع المصطلح أن صار المفهوم الأجنبي غامضا عند وضعه مصطلحا في العربية رغم أن دلالته قد تكون واضحة في لغته الأصلية، وهذا ما أدى إلى شيوع الإبهام والغموض ...[1]

ويزيد حجم الإشكال تعقيدا أن أكثر الباحثين قد انجذب نحو المصطلح النقدي الوافد بكل تداعياته وجعله أساسا في الدراسة النقدية المعاصرة ؛ الأمر الذي جعل الأعمال النقدية الحديثة تبدو في معزل عن الاستفادة من الموروث النقدي القديم .

فالخلاصة أن المصطلح النقدي عند العرب قد شهد في العصر الحديث تطورا في الكم والكيف، لكنه يعاني جملة من الاشكالات متعددة الأوجه ومتنوعة المظاهر، وتكمن التعددية في تعدد المصطلحات العربية الموضوعة للمفهوم الأجنبي الواحد، وقد أدى ذلك إلى وجود فجوة كبيرة بين الناقد والأديب وبين النقاد أنفسهم ، مما تسبب في خلق حالة فوضى عارمة في مجال النقد الأدبي ، الأمر الذي يدعو إلى تساؤل مهم : هل النقد العربي بحاجة إلى المصطلح النقدي الغربي ؟ وهذا ما سنحاول أن نجيب عليه .

---

[1] . ينظر: مشكلة المصطلح في النقد الأدبي الحديث، حماده أبو شاويش ،مجله كلية التربية/ المجلد الأول / العدد الأول / يناير ١٩٩٧م/ ص ٢٠٥.

المبحث الأول

(المصطلح الأجنبي بين القبول والرفض [١])

تحول المصطلح النقدي الغربي في الدراسات العربية إلى مصطلح ذاتي لا دلالة له من كثرة تفسيراته حينا، وحينا آخر من كثرة مرادفاته؛ مما أدى إلى فوضى في الآراء النقدية وتضارب فيها وتنافر ؛ لأن الناقد " يغرف

---

[١] . أقصد بالمصطلح هنا : كل لفظة مفردة أو مركبة مستوردة من النقد الغربي، سواء كانت اللفظة تدل على ما اصطلح عليه نقاد الغرب مذهبا مثل: الرومانسية ،التي عبر عنها النقد العربي بالرومانتيكية، والرومانتية، والرومانطيقية، وجميعها ترجمات للمصطلح (romanticism) الذي ابتدعه الكاتب الفرنسي (ستندال) (١٧٨٣-١٨٤٢)، أو كانت اللفظة تدل على ما اصطلحوا عليه منهجا مثل: البنيوية ، فقد استخدمت في النقد العربي تحت مسمى البنائية، والهيكلية، والألسنية، والبنية، وجميعها ترجمة للمصطلح الغربي (structuralism)، أو كانت اللفظة تدل على إبداع مثل: الشعر الحر، الذي يعرف أيضا بشعر الحداثة، والشعر المتحرر ، والشعر الطليق، وشعر التفعيلة ... وجميعها ترجمة لما يسمونه بالإنجليزية (poetry in prose) وبالفرنسية (vers libry)، او كانت اللفظة تعبر عن مدلول نقدي مثل: الانزياح ،فقد أورد عبد السلام المسدي في كتابه الأسلوبية والأسلوب عددا من الألفاظ التي تقابل اللفظة نفسها تجاوزت الثمانية منها: التجاوز، والانحراف، والاختلال، والانتهاك، واللحن، والتحريف، والاطاحة، والمخالفة، وجميعها يصح أن تكون ترجمة لكلمة (ecart) والمصطلح حديث النشأة في الظهور إلا أن مفهوم العدول الذي يرادفه حضر قديما في كتب النقد والبلاغة ،والحال نفسه مع لفظة (التناص)، فقد يعبر عنه عربيا بالاقتباس والتضمين والتلميح والإشارة والاستشهاد، فمثل هذه المصطلحات وغيرها عملت على إذاعة الفوضى في النقد العربي، وحولت الناقد العربي إلى تابع وناقل، وأخرجته من دائرة الإبداع، وفي نظري مثل هذه المصطلحات وغيرها جنت على النقد العربي أكثر مما قدمت له، وجل هذه المصطلحات له جذور في ترثنا النقدي، إن أردنا دراسات عربية نقدية خالصة .

من هنا ومن هناك وتتزاحم المصطلحات الروسية والانجليزية والفرنسية والألمانية من غير هدف لإظهار الاطلاع "[1] الأمر الذي يدع إلى تساؤل مهم : هل نحن العرب بحاجة إلى المصطلح الغربي ؟

ما يبدو منطقيا : ضرورة أن يكون المصطلح النقدي المخول إليه محاكمة النص الأدبي نابعا من الإبداع الأدبي ،ولما كان الإبداع الأدبي في حقيقته صورة حية للمجتمع الذي يعيشه الأديب ؛كان من المسلّم به أن يكون المصطلح النقدي هو الآخر نابعا من هذا المجتمع الذي عايشه الأديب وقت صاغ إبداعه، هذا الأمر يبدو مقبولا في تقديري ؛ لكن مالا يقبل هو أن يؤتى بمصطلح غربي قادم من مجتمع مختلف عن مجتمعنا العربي في قيمه ومبادئه وجوهره عموما ونحاكم به أدبا عربيا له من الخصوصية ما ليس لغيره .

وعليه أقول: إننا نحن العرب لسنا بحاجة إلى إقحام المصطلح النقدي الغربي في الدارسات التي تتناول الإبداع العربي بالدراسة؛ وذلك لأسباب ثلاثة جميعها يكمن في الخصوصية، أجملها في :

١ـ خصوصية اللغة .

٢ـ خصوصية الإبداع .

٣ـ خصوصية المجتمع .

وفي البداية أود أن أقول : إن الخصوصية جوهر تقوم على أساسه الحياة، فكل إنسان له خصوصيته ،وهذه الخصوصية تجعل له طريقة في

---

[1] ـ دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ ١٠٥٢م) ، تحقيق محمد عبده وحمد محمود الشنقيطي، دار المعرفة ،بيروت ١٩٨١م ، ص ٤٦٨.

التعامل من قبل الآخرى فمثلا : خصوصية الرجل ليست كخصوصية المرأة، وخصوصية المتعلم ليست كخصوصية الأمي ،إذ كل منهم يحتاج طريقة في التعامل ،فإذا ما انتقلنا إلى دائرة أكبر نجد أن خصوصية أهل مصر ليست كخصوصية أهل الخليج ،فإذا ما وسعنا الدائرة نجد أن خصوصية العالم العربي ليست كخصوصية غيره من الشعوب، ومن ثم ينبغي أن نراعي خصوصية كلٍ عند التعامل معه من خلال الحكم عليه ،وهذا ما نفتقده في مجال النقد الأدبي اليوم، حيث إننا العرب أصبحنا نحاكم الأدب العربي بقوانين بعيدة عن خصوصيته العربية . وتوضيح ذلك في الآتي :

أولا: خصوصية اللغة .

لاشك في أن اللغة هي مرآة الفكر وأداته ،إذ بها يعبر الإنسان عما يختلج في صدره من أفكار ومشاعر ،كما أنها العامل الأول في بقاء الثقافة الإنسانية واستمرارها ،فالأدب . مثلا . موجود مادامت لغته باقية وموجودة ، فإذا ماتت اللغة مات معها الأدب، ومن ثم ماتت الثقافة ، ومن هنا تكمن خصوصية اللغة في بقاء الفن الأدبي ،فما دامت اللغة هي أداة للإبداع الأدبي كان من الضروري أن نقيمه في إطار لغته التي أنشأته ، فإذا ما ترجم الإبداع إلى غير لغته لا يمكن بحال أن نقيّمه كإبداع أدبي ؛لأن لكل لغة خصوصية ليست لغيرها ، ولغتنا العربية لها من الخصوصيات ما ليس لغيرها، فهي لغة القرآن الكريم ، ولغة المسلمين عبر مشارق الأرض ومغاربها ،وتختلف عن بقية اللغات الحية الأخرى من كونها تمتلك عديدا من المزايا الخاصة بها من مثل: ثراء المفردات والمترادفات والمحسنات البديعية واللفظية ،حتى أن كل كلمة في اللغة العربية قد يكون لها عشرات

المترادفات ، فكلمة (الأسد) . مثلا. نجد لها عدة مترادفات من مثل : الليث الغضنفر ، عكاشة ، أبو لبدة ، أسامة ، أشجع ...في حين لفظة واحدة تعبر عن الأسد في اللغة الانجليزية هي (lion)، وكذا الحال مع كلمة مثل (اذهب) نجد لها مترادفات من مثل : ارحل ، اغرب ، امشِ ، ابعد ...في حين لفظة واحدة تعبر عن كل ذلك في اللغة الانجليزية وهي (go)، إضافة إلى المعاني المجازية ،فالتشبيهات والاستعارات والكنايات في اللغة العربية كثيرة للغاية ولكل منها معنى جديد عن سابقه ، فالمعنى الواحد وضعت له ألفاظ متعددة لتكثير وسائل التفاهم ،وحتى يجد المتكلم سهولة وعدم توقف أثناء الخطاب ،فإذا غاب عنه لفظ كان بوسعه أن يأتي بمرادفه ،وذلك أن الكلمة الواحدة فيها تحتفظ بدلالاتها المجازية والواقعية دون التباس بين المعنيين، كما أنها يكثر فيها اقتران المعاني الحسية بالمعاني المجردة ،وانتقال المفردة من معنى إلى آخر لا يلغي المعنى السابق ،كما أن للغة العربية طريقة عجيبة في توليد المصطلح وصياغته من خلال الاشتقاق والنحت والتعريب [1]، وهي أمور اختصت بها اللغة العربية دون غيرها من

---

[1] الاشتقاق هو: أخذ صيغة من أخرى على اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة وتركيب ،ليدل بالثانية على معنى بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة ، أما النحت هو : أن تعتمد إلى كلمتين أو جملة فتنزع من مجموع حروف كلماتها كلمة فذَة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها ،ولما كان هذا النزع يشبه النحت من الخشب والحجارة سمي نحتا ، فهو عملية تحقق الاختزال دون الإخلال ، حيث نحصل على مصطلح جديد من مصطلحين ،وأما التعريب : فهو إكساب مصطلح أجنبي صبغة عربية على الصعيد الصوتي ولا يلجأ لذلك إلا في حالة إجماع أن المفهوم الجديد ليس له ما يقابله من دال لغوي في العربية . ينظر ذلك مفصلا في : الأشباه والنظائر ، جلال الدين السيوطي ،مجمع اللغة العربية ،دمشق، ص: ٧٤٢/٢. و الاشتقاق والتعريب ،عبد القادر مغربي ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩١٧م، ص:١٥٢.

اللغات ففي اللغة العربية نشتق لفظ المكتبة (اسم مكان) من الكتاب والكتابة، بينما لا علاقة بين (book) التي تعني كتاب في اللغة الإنجليزية وبين (library) التي تعني مكتبة، فاللغة العربية وحدها تجدها نسيجا متلاحما مترابطا تتفق الحروف وتختلف المعاني لكنها تشترك معا في حقل واحد، فالحروف الثلاثة لمادة (ض ر ب) تشترك في عدة معاني مثل: ضرب في الزمن الماضي، ويضرب في المضارع واضرب بصيغة الأمر، ومضرب اسم آلة، ومضروب اسم مفعول ، وضارب اسم فاعل ،وهذه أمور تجدها في لغتنا العربية ولا تجدها في اللغات الأخرى .

ولخصوصية اللغة العربية وتفردها شهد لها عدد كبير من الدارسين غير العرب من أمثال : أرنست رينان في كتابه (تاريخ اللغات السامية) ومما قاله في وصفها : "تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظامها، ظهرت كاملة من غير تدرج " ... وقال عنها المطران يوسف داوود الموصلي : "أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق ،عباراتها سلسة طبيعية " . وفي حديث للمستشرق ماسينون في عام ١٩٤٩م تحدث عن تركيب اللغات المختلفة فأوضح أن العربية تفضل العبرية والسريانية لقدرتها على الجمع بين خصائص السامية والميزات الخاصة التي تتمثل في سعة مدارجها الصوتية من أقصى الحلق إلى ما بعد الشفتين مما أدى إلى انسجام صوتي مع توازن وثبات بالإضافة إلى الرابطة القوية بين ألفاظها ،ولكل صوت من اللغة العربية صفة ومخرج وايحاء ودلالة ومعنى وإشعاع وصدى وإيقاع. ... لذلك فإن اللغة العربية لا تحتاج

إلى التسلسل التاريخي في وضع معاجمها الحديثة؛ لأن معانيها في الغالب لا تهجر بل تستخدم كلها وفقا لسياقاتها المتنوعة .[1]

مما سبق نستطيع القول : إن للغة العربية خصوصية تختلف عن قريناتها من اللغات ،وهذه الخصوصية تظهر أكثر ما تظهر في مجال الإبداع الأدبي ، إذ كل لفظة في النص الأدبي مقصودة بذاتها ،وتؤدي معنى قد لا يتأتى بمرادفها ، والحال نفسه في مجال النقد الأدبي ؛لذا ينبغي أن نراعي خصوصية اللغة العربية عند إبداع النص الأدبي ،وكذا عند نقده .

ثانيا: خصوصية الإبداع الأدبي العربي.

عطفا على ما سبق وإذا ما سلمنا أن للغة العربية خاصية ليست لغيرها من اللغات ،كان من المنطقي أن يكون للإبداع العربي خاصية ليست لغيره ؛لأن الإبداع الأدبي هو في حقيقته إبداع لغوي مرتبط باللغة التي أنشأته ؛ونظرا لأن الشعر هو الإبداع العربي الأصيل الذي توارثته الأجيال العربية عبر تاريخها من لدن العصر الجاهلي سيكون الحديث عن خصوصية الإبداع مرتبطا بفن الشعر، والغاية هي إثبات أن الشعر العربي له من الخصوصية ما ليس لغيره ،وإن اتفقنا بأن ثمة عوامل مشتركة بين فن الشعر عند العرب وعند غيرهم من الشعوب، لكن بقي للشعر العربي دوما خصوصيته العربية تلك الخصوصية التي تحدث عنها ابن خلدون في مقدمته فقال :"هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم

---

[1] ـ عناصر اللغة العربية وخصائصها , خالد العريني , طبعة وزارة المعارف , المملكة العربية السعودية , والبحث منشور الكترونيا على الرابط التالي :

https://arablib.com/harf?view=book&lid=2&rand1=T2hqQFJ6KnhFYVhz&rand2=SzhBRm9OTzFqOSVs

ويوجد في سائر اللغات ،إلا أننا نتكلم في الشعر الذي للعرب، فإن أمكن أن تجد فيه أهل الألسن الأخرى مقصدهم من كلامهم ،وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه ،وهو في لسان العرب غريب النزعة ،عزيز المنحى ،إذ هو كلام مفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن ،متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة ،وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ،ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويا وقافية .."[1]

من ثمَ أكد ابن خلدون أن الشعر وإن وجد في سائر اللغات إلا أن الشعر العربي له خصوصيته التي تميزه عن غيره ، إذ هو كلام مفصل إلى قطع ، هذه القطع متساوية في الوزن ومتحدة في القافية ، وهي أحكام تخص اللسان العربي وحده ، ومن ثم فإن الشعر العربي إذا تُرجم لغير لغته فَقَد جوهره وأصله ، بخلاف غيره ؛وذلك لأن اللفظة في الشعر العربي مقصودة بذاتها ،وفي تقديمها أو تأخيرها علة ومعنى، إضافة إلى جرس حروفها وتناسقها مع غيرها مما يجاورها، وكذا موقع الكلمة في الضرب أو العروض له قيمته الشعرية ،ومن ثم ترجمة اللفظة العربية ـ التي ربما ترادفها عشرات الكلمات في اللغة العربية ـ لا يمكن أن تؤديه لفظة أجنبية واحدة ،وإن حدث وترجمت اللفظة بأحد المعاني سيكون في ذلك ظلم كبير للشعر العربي ؛لأن اللفظة المترجمة من قِبل الناقل ليست في الغالب هي المقصودة من قِبل الشاعر ،ولا شك أن اختلاف الكلمة في الشعر العربي

---

[1] ـ مقدمة ابن خلدون ، تأليف بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ ، ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) ، وضبط المتن ووضع الحواشي والفارسي أ/ خليل شحاده ، مراجعة د . سهيل ذكار ، ص ٧٨٤ ، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر عام ١٤٣١ هـ – ٢٠٠١ م.

تُضيّع كثيرا من قيمته وتؤكد تفوق شاعر على آخر، فالشاعر وصل للشاعرية باختيار كلماته، وتجانس عباراته ،وموسيقية أوزانه، وروعة معانيه، والمعاني وإن كانت تؤديها اللفظة المعادلة في اللغة غير العربية إلا أن المعاني الشعرية ليست ثابته فهي في بطن الشاعر ،أي أن المعاني الشعرية محل اجتهاد من قبل القارئ والناقد ،وهذا أمر يثري الشعر العربي ويجعله أكثر متعة وخيال ، فأنت تقرأ البيت وتفهم معنى ، وغيرك يقرأه وقد يفهم معنى آخر ، وهذا أمر لا تجده إلا في الإبداع العربي .

وفي هذا السياق كتب الأستاذ نجيب الحداد مقالا بعنوان :(مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي)[1] وفيه رأى أن طبيعة الشعر العربي تستعصي على الناقل ـ المترجم ـ ؛لخصوصية معانيه، وتباين أذواق أهله ،واختلاف أساليب التجوز فيه ،موضحا أن المعنى الشعري الواحد قد يتفنن الشاعر العربي في إبرازه بأكثر من عشر صيغ، وتختلف درجة الشاعرية باختلاف الإجادة والتقصير فيها . وقد وضح (الحداد) أنه أولع بهذا الفن منذ صباه ،وقضى كثير أوقات فراغه في قراءة دواوين العرب ونظم المجيدين من شعرائهم ،وكذا قراءة كثير من شعر الفرنسيين وشعر غيرهم منقولا إلى لغتهم كشعر اليونان والرومان والانجليز والألمان والطليان، ثم انتقل بعد ذلك لموضوع مقاله، وقد حدد الفرق الفاصل بين الشعر العربي والشعر الأوروبي في نوعين لفظي ومعنوي .

أما اللفظي ما تعلق بالوزن والقافية ،وقد وجد أن إقامة الوزن في الشعر الإفرنجي يتألف من الأهجية اللفظية ،وهي نبرة صوتية تعتمد على حرف من حروف المد سواء كان وحده أو مقترنا بحرف صحيح، ويسمون الأهجية

---

[1] . مجلة البيان ، العدد السابع ، تاريخ الإصدار الأول من سبتمبر ١٨٩٧م .

في اصطلاحهم الشعري (أقداما) وبها تنقسم أبحر الشعر عندهم على حسب أعدادها في البيت، فيكون أطولها ما تركب من اثنتي عشر هجاء ،وكل شطر من الشعر ينتهي عند الهجاء السادس ،بحيث لا تنقطع الكلمة في وسطه إلى شطرين ،وذلك خلاف الشعر العربي الذي يجوز وصل الشطرين منه بكلمة واحدة ،وهو المعروف بالمدور ،وقد رأى أن إقامة الوزن في الشعر الإفرنجي على عدد الأهجية يسهل نظمه كثيرا ويتيح للشاعر أن يقدم أو يؤخر في ألفاظ البيت ما شاء ولا يختل معه الوزن ،على عكس الشعر العربي الذي يعتمد وزنه على التفاعيل من الأسباب والأوتاد ،فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيره قد يؤدي إلى اختلاف بجملته ،أو ربما انتقل البيت من بحر إلى بحر ،كما أن القافية عندهم لا تلزم الشاعر أكثر من بيتين، ويقسمون القوافي إلى مؤنثة ومذكرة ،ويريد بالقافية المؤنثة ما كانت مختومة بحرف علة ،وبالمذكرة ما كانت مختومة بحرف صحيح، وإقامة شعرهم على قواف متعددة أرجعه (الحداد) إلى ضيق لغتهم ،وقلة ألفاظهم بحيث لا تتسع لالتزام قافية واحدة في القصيدة الطويلة ،وذلك على خلاف الشعر العربي الذي له من اتساع اللغة واستفاضة ألفاظها نصيب كبير .

أما المعنوي فقد وجد(الحداد) شعرهم يلتزم الحقيقة التزاما شديدا ،وينأى عن المبالغة والغلو والإغراب ،وهو أيضا خلاف الشعر العربي فأكثره يتبنى الإغراب في المعاني والمغالاة في الوصف ،بما يخرج الكلام عن حد الحقيقة إلى المجاز .

وكذا من الفوارق المعنوية بين الشعرين ،أن شعراء العرب يفتتحون أغراضهم الشعرية بمقدمات تمهيدية ،وقد يستغنون عنها ، أما الشعراء الإفرنج فإنهم يأتون بها اقتضابا ،وفي اصطلاحهم ألا يقدموا شيئا بين

أغراضهم الشعرية ،فالفخر وإن كان بابا خاصا في الشعر العربي إلا أن شعراء الإفرنج يعدونه عيبا ونقصا ، فلا يمدحون في أشعارهم ، كذلك من المفارقات التي عدها (الحداد) أنه رأى أن العرب أقدر على وصف الأعيان من غيرها ، فإذا وصفت توسعت في الوصف توسعا لا يقدر غيرهم علي الاتيان بمثله ،ويستدل على ذلك بأن المتنبي وصف الأسد بما لا يقدر الإفرنجي على وصفه بمثله.

وأخيرا اختتم مقاله بالحديث عن البديع والمعاني وقد لحظ أن هذين البابين لا وجود لهما عند الإفرنج ،وأن شعراء العرب ينفردون بهما عن سواهم، فهم وحدهم يستطيعون إيراد المعاني على أساليب كثيرة .

وتعقيبا أقول: يعد المقال السابق أقدم مقال نقدي تحدث عن الفوارق بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي ،وقد حاول كاتبه جاهدا إثبات خاصية الشعر العربي ،فأكد أن طبيعته تستعصي على الناقل؛ لخصوصية معانيه ،وتباين أذواق أهله ،واختلاف أساليب التجوز فيه ،وهذه الضرورة تكسبه خصوصية لا يشاركه فيها غيره ،كما أكد أن في نقل الشعر العربي لغير العربية ظلما كبيرا له ،وهو أمر أتفق معه فيه ؛لأن خصوصية الإبداع العربي وخاصة الشعر تكمن في سر لغته العربية ،وفي رأيي أن الشعر العربي إذا ترجم لغير اللغة العربية خرج من دائرة الشعر ،ولا يصح أن نطلق على ترجمته شعرا ؛لأنه بترجمته فقَد كل أصول الشعر العربي، من وزن وقافية وجرس حروف ومعاني وأساليب وعبارات وبلاغة وتجانس وجميعها أساسيات فن الشعر ،لذلك أستطيع أن أقول :إن الشعر العربي إبداع له خصوصية متعلقة بلغته العربية ،فهو شعر متى كان مكتوبا بالعربية منطوقا بها ،فإذا خرج من اللغة العربية إلى غيرها خرج من دائرة

الشعر والإبداع ،ومن ثم ينبغي أن يكون نقده نقدا عربيا خالصا ،بمعنى أن تكون قواعد نقده مستمدة من اللغة العربية ،ولا يحق لناقد أن يأتي بمصطلحات أو ضوابط غربية المنشأ ويبحث عنها أو يطبقها على القصيدة العربية، وإنما ينبغي أن تكون ضوابط مستخلصة من اللغة العربية وذوق أهلها وخصوصية مجتمعهم وعاداته .

ثالثا: خصوصية المجتمع .

يبدو واضحا بما لا يدع مجالا للشك أن العلاقة بين الأدب والمجتمع وثيقة، فالأدب يعكس الواقع المجتمعي ويؤثر فيه ،كما أنه يقوم برفع الوعي الفكري والجمالي عند أفراد المجتمع ،وقد صور الأدب في كل عصوره جوانب متعددة من حياة الشعوب ومجتمعاتها ،كما أنه نقل الحياة الاجتماعية بكل صورها وأشكالها والمتتبع لأدب مجتمع ما يستطيع أن يدرك كيف هي حياة هذا المجتمع " فحياة الأدب في قطر من الأقطار صورة حية وانعكاس للعملية الاجتماعية الكبيرة التي يمارسها المجتمع بمختلف فئاته "[1]

والأديب والناقد على السواء لا يمكنهما الخروج من دائرة مجتمعهم ،إذ إن ما يكتب وما يبدع هو نتاج العلاقات الاجتماعية القائمة في المجتمع ، ولا معنى لما تجود به قرائح الأدباء والنقاد ما لم يكن ممزوجا بالواقع المجتمعي ،وهذا الأمر يتفق عليه العرب وغير العرب ،فهذا ديفيد ديستش يقول :" إن الأدب يفسر بالنظر إلى أصوله الاجتماعية ، أو أن يعلل نزعة الأديب بالنظر إلى موقعه في طبقة ما، أو أن يحكم على أثر أدبي أو على

---

[1] . حياة الأدب الفلسطيني الحديث ،د.عبد الرحمن ياغي ، المكتب التجاري ،بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٨، ص ٧ .

أديب حسب الميل الذي يظهره مؤيدا القضية السياسية والاقتصادية التي يؤثرها الناقد"[١] وفي السياق ذاته يقول كلود دوشيه :" كل ما في النص إنما يصدر عن أفعال المجتمع "[٢] فالمجتمع هو مصدر الإبداع ،والأديب متأثر ببيئته وبالظروف القائمة داخل مجتمعه ،وهو يستمد قوته وديمومته من المجتمع الذي يعيش فيه ،فهو يكتب لأفراده، ويريد أن يؤثر فيهم ،ووسيلته في ذلك الحديث عما يعنيهم ويهمهم.

ومن ثم يتضح دور الأدب في حياة المجتمع وأثره فيه، وكذا دور المجتمع في صياغة الأدب وإبداعه ،فهما متلازمان ، ومن غير المعقول أن ننظر للأدب في عزلة عن مجتمعه الذي أنتجه؛ لأن حيوية الأدب وتأثيره في النفس مرتبط بما يدور في المجتمع ، وهنا تكمن جماليات الأدب ،فالمقال لن يفيد ويؤثر في قارئه مالم يكن معبرا عن هذا القارئ، والأمر نفسه مع القصيدة والخطبة والقصة والرواية وغيرها من الأجناس الأدبية.

وعليه أقول : لما كان الواقع المجتمعي هو مصدر إلهام الأدباء ،والأدب هو طريقة التعبير عن هذا الواقع المجتمعي ، كان من المنطقي أن تختلف طريقة التعبير من مجتمع لآخر؛ إذ لكل مجتمع عاداته وتقاليده وقوانينه ،وبالطبع ينبغي أن يُقيّم كل أدب وفقا لمعايير مجتمعه الذي يفرضها ،بل أكثر من ذلك ينبغي أن يقيم كل أدب وفق ظروف عصره ،إذ تختلف طريقة التعبير من عصر إلي عصر ،فكل عصر له سمته التي تميزه عن غيره،

---

[١] . مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ،ديفيد ديستش ، ترجمة محمد يوسف نجم ،مراجعة إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ص٥٧٣.

[٢] . النقد الأدبي الحديث في القرن العشرين، جان ايف تاديه، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحديث، الطبعة الأولى١٩٩٤م، ص ١٣٦.

وربما عاداته وقوانينه ، وأفراده يعبرون عنه بطريقتهم وربما بلغتهم الخاصة ،فلكل زمن خاصيته ، وله مشاغله وهمومه ، وذوقه الخاص به ،والأديب يختار لغته من العصر الذي يعيش فيه، والأمر كما يقول دكتور/رجاء عيد . ومعه أتفق . : "لكل عصر همه وهمومه، ولكل عصر ذوقه وتذوقه، مما يتخالف عن ذوق عصر سواه، ويتفارق عن هموم غيره"[1] .

ومن ثم أستخلص مما سبق فأقول : إذا كان الأدب هو المرآة العاكسة للواقع المجتمعي فإنه ينبغي أن يكون معبرا عن مجتمعه ، مراعيا لأسسه وضوابطه وقوانينه ،وكذا يكون نقد هذا الأدب هو الآخر نابعا من ضوابط وقوانين هذا المجتمع الذي أنشأه ،وعليه فليس من المعقول أن نأتي بقوانين نقدية غير عربية ونطبقها على أدبنا العربي ؛إذ إن ضوابط وقوانين وأخلاق مجتمعنا العربي تختلف كل الاختلاف عن المجتمع الغربي ،الذي به نتأثر ومنه نستورد ،فلا أزعم أن أحدا معي يختلف أن المجتمع العربي له من الخصوصية ما ليس لغيره، فالمجتمع العربي محافظ على عاداته، متدين بطبعه ،له سياساته الخاصة ،بل أكثر من ذلك أن كل عصر من عصور الأدب العربي له خصوصيته المجتمعية التي يقف عندها النقاد عندما يقومون بدراسة ظاهرة أدبية في عصر ما ،فمن يدرس شعر شاعر في عصر ما نجده يقدم لدراسته بالحديث عن الحياة الاجتماعية في عصر الشاعر ؛ وذلك لأن ظروف المجتمع تعد معيارا مهما في تقييم الإبداع الشعري ،ندلل على ذلك بمثال : شاعر عاصر حدثا تاريخيا كحرب أكتوبر فعبر عنه بقصيدة شعرية ، فمتى وضعت في ميزان النقد ، كان للمجتمع

---

[1] . القول الشعري (منظورات معاصرة) د. رجاء عيد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص ١٠٨.

منه نصيب ، فينظر الناقد فيما قاله الشاعر في ضوء ظروف مجتمعه وقت صاغ قصيدته، هل بث الروح في قلوب أفراد مجتمعه وصدقت عاطفته ؟ فيكون في ذلك مندوحة له ، أم هل أخفق في تصويره وفترت عاطفته ؟ فيكون في ذلك مأخذا عليه، وكذا الحال مع القصة والرواية وغيرها من الأجناس الأدبية، فنَقد جميعها يعود لما تطلبه المجتمع وقت صاغ الأديب إبداعه؛ وعليه يكون المجتمع عاملا مهما في العملية الإبداعية والنقدية ،ومن الضروري أن تراعى خصوصية المجتمع عند تقييم العمل الأدبي والحكم عليه ،وعلى الناقد قبل أن يغوص في النص الأدبي ويصدر أحكامه أن يقرأ جيدا الظروف المجتمعية المحيطة بالنص، فينطلق من خلالها ،مراعيا أن المجتمع العربي له طبيعته الخاصة التي تختلف عن غيره، وهذا أمر في النقد مطلوب ومهم من وجهتي ،وإن خالف هوى غيري .

المبحث الثاني

(أثر المصطلح النقدي الوافد في الدراسات النقدية العربية الحديثة)

ليس ثمت شك في أن الدراسات النقدية العربية المعاصرة باتت متأثرة بالنقد الغربي ومصطلحاته ومناهجه ،وأن نخبا من النقاد العرب قد تأثروا به وحاولوا أن يتمثلوا فلسفة هذا النقد الغربي سواء على مستوى المنهج أو المصطلح أو الأدوات الإجرائية في أطروحاتهم النقدية وتصوراتهم للظاهرة الأدبية ،فتبنوا الأحكام الجاهزة وحاولوا إسقاطها على النصوص العربية ،دون النظر إلى طبيعة البيئة واللغة والأدب وتناسوا أن" .. من خصائص التطور الفكري أن كل حلقة منه غير منفصلة عما سبقها أو ما يلحق بها من حلقات ،فهي وليدة الحلقة السابقة عليها ،وهي أساس الحلقة التالية لها ،فالتطور الفكري أشبه بالبناء يقوم كل حجر فيه على حجر بترتيب ونظام ،وهولا يرتفع ويكتمل إلا برصف طبقة من أحجاره فوق طبقة ،فلا تنحرف واحدة منها عن غيرها ، ولا تقف منها معلقة في الهواء "[1] .

والواضح للدارسين أن المصطلحات النقدية الغربية المنتشرة في الدراسات النقدية العربية أفقدت النقد العربي هويته وأوجدت حالة من الاختلاف بين النقاد العرب أنفسهم ؛ لأننا عندما نقوم باستعمال المصطلح وننقله إلى اللغة العربية فإننا لا ننقل فقط ألفاظا مجردة وإنما ننقل ـ إضافة إلى اللفظ ـ مفاهيما ذات حمولات تاريخية وثقافية ومعرفية مختصة بأقوام تغايرنا في التاريخ والثقافة والمجتمع ،ومن ثم وقع الخلاف والجدل، كما أن المناهج النقدية الغربية من مثل الأسلوبية والبنيوية والسيميائية ـ التي هي في حقيقتها

---

[1] . نقاد الأدب ، محمد مفيد الشوباشي ، د.حسن فتح الباب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م، ص ٢٠٦.

مصطلحات وافدة ـ تعبر عن مناهج فرضتها ظروف محددة عاشتها المجتمعات الغربية وآدابها، إذ إن كل تغير في مجال الفكر والفن والنقد لا يحدث بمعزل عن القوى الفعالة في المجتمع ،ولذلك كانت ولادة هذه المناهج وتطورها يحدث بصورة طبيعية ،حتى أن المنهج قد يقوم عليه غيره ،بمعنى أن يأتي المنهج ثم ما يلبث أن يموت ويأتي غيره ليحل محله ،وهذا تطور طبيعي للحياة الأدبية والنقدية ،أما عندنا نحن العرب فالأمر مختلف ؛لأننا نقلنا المصطلحات والمناهج الغربية دون النظر إلى الطبيعة المجتمعية واللغوية والأدبية التي تقضييها الحياة العربية ،فجاءت النتائج عكسية ،كمثل نبتة لا تعيش إلا في منطقة استوائية وقد نقلت إلى بيئة أخرى دون تأمين الظروف المناسبة لاستمرارها في الحياة ،وأمر النقد العربي اليوم بات هو الأخر غير متكيف مع طبيعة الأدب العربي حتى لكأنه صار بمعزل عنه ،والأمر كما يقول د. حسن فتح الباب :"تمادينا في اقتباس أساليب الحياة الأجنبية وإحاطة أنفسنا بمظاهرها ،والاقبال على النتاج الأدبي الأجنبي أخذ يحور لون أدبنا وينقله من طور إلى طور ،فإذا أعمالنا الأدبية لا تعكس صورا صادقة لمجتمعنا الذي ظلت أكثريته شرقية بحتة ،ولم تعد تتأثر بخوالج تلك الأكثرية وتؤثر فيها ،ولكنها اتجهت إلى الأدب الأوربي تنقل منه أو تحاذيه أو تحاكيه.."[1]

وإذا كانت أعمالنا الأدبية لا تعكس صورة مجتمعاتنا العربية فإن الأعمال النقدية أشد سوءا، فقد أضحت هي الأخرى بعيدة كل البعد عن خصوصيتنا العربية، وأصبح ناقدنا العربي متأثرا بالثقافة الغربية ونقدها الأدبي، محاكيا إياها في دراساته النقدية حتى غدت الدراسات النقدية العربية مقحمة

[1] . المرجع السابق ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

بالمصطلحات الغربية بصورة تثير الغضب وتدعو إلى الحذر،وكأن الناقد وجد فيها نوعا من المجد والتعالي، فالناقد الذي حصّل قسطا من الثقافة الغربية انبهر بالنقد الغربي ومصطلحاته وصغر في ناظره تراث أمته النقدي ؛فقطع صلته به ،وراح يحدثنا عن أدبنا العربي بلسان غير عربي في نهجه وإن كان عربيا في كتابته وسمعه، حتى صار النقد غامضا مستعصيا على الفهم، وأصبحنا بحاجة لقاموس نترجم من خلاله مقصد الناقد ووجهته أكثر من حاجتنا إلى تفسير الأدب ذاته، الأمر الذي أثر بالسلب على الأدب ونقده.

وفي ظل هذه التبعية الثقافية ،والانبهار بالفكر الغربي عموما والنقدي خصوصا، وقع النقد العربي في مآزق كثيرة حيث ".. أغلق الناقد العربي الباب على منابع الفكر والخصوبة والموهبة في ذهنه، وراح يغترف من معين الأساتذة النقاد الأوربيين دون أن يفطن إلى أن النقد الأوربي يتحدر من تاريخ منعزل انعزالا تاما عن تاريخنا، وكيف يتاح لنا أن نطبق أسس النقد الأجنبي على شعرنا الذي يتدفق من قلوب غير تلك القلوب، وعصور غير تلك العصور .."[1]

والحق أن كل نص أدبي له خصوصياته، فهو مثل الكائن الحي ينمو ويترعرع في بيئة معينة تنطلي عليه مختلف تأثيراتها وملابساتها الطبيعية والاجتماعية والنفسية والسياسية والثقافية وغيرها؛ ولذا تمايزت آداب الأمم واختلفت فيما بينها باختلاف العصر والطبيعة وكذا الجنس البشري ".. فمن المؤكد مثلا أن الطبيعة الجبلية الباردة لابد أن تؤثر فيمن يقيمون فيها

---

[1] . قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين بيروت ، ط٥ ، مايو ١٩٨٧م، ص٣٣٤.

تأثيرات نفسية، غير التأثيرات التي تحدثها بيئة السهول الزراعية في أبنائها، أو البيئة الصحراوية، ولربما كان لضباب شمال أوربا ووعورة بيئتها الطبيعية وتنوع مشاهد تلك البيئة أكبر الأثر في تكوين المميزات التي تختص بها آداب تلك المناطق، بينما كان للصحو والإشراق ووضوح الرؤية في بلاد جنوب أوربا كفرنسا وإيطاليا وأسبانيا أثرها القوي في إبراز الوضوح والحرارة التي تتميز بها آداب تلك الشعوب .." [١]

أما من حيث الجنس البشري فما من شك أن ".. للجنس الأنجلو سكسوني وللجنس الجرماني وللجنس اللاتيني خصائص نفسية متميزة ، انعكست في أدب كل هذه الأجناس، على نحو ما هو واضح عندما نقارن بين أدب أنجلو سكسوني كالأدب الإنجليزي، وأدب جرماني كالأدب الألماني، وأدب لاتيني كالأدب الفرنسي، حيث نحس بالطبع النفعي وبالغموض في الإنجليزي، بينما نحس بالطابع الميتافيزيقي الأسطوري الرومانسي في الأدب الألماني، والطابع الفكري والوضوح والرشاقة في الأدب الفرنسي .."[٢]

لكن رغم تمايز الآداب من حيث اختلاف البيئة والطبيعة وكذا الجنس البشري وطبيعته، إلا أن هذه الخصوصيات لا يعيرها النقاد العرب أدنى اهتمام، بل نجد الناقد العربي ينساق إلى كل ما يصدر عن الغرب من نظريات ومذاهب ومناهج انسياقا شديدا، والأمر كما تقول نازك الملائكة : "فما يكاد الناقد العربي اليافع يقرأ ما كتبه إيليوت ورتشارد وبرادلي ومالا

---

[١] . الأدب وفنونه ،محمد مندور ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، مدينة السادس من اكتوبر ، ط٢ ، سبتمبر ٢٠٠٢م ، ص١٤١.

[٢] . المرجع السابق ، ص١٤٠.

رميه فاليري وغيرهم حتى يشتهي أن يطبق ما يقولون على الشعر العربي مهما كلفه ذلك من تصنع وتعسف وجور على شعرنا ولغتنا .."[١]

والحق الواضح : أن إقحام المصطلح النقدي الغربي في الدراسات العربية لم يضف إليها، وإنما جعلها غامضة ومعقدة، حتى أصبح النقد الأدبي الذي وظيفته تفسير النص الأدبي أكثر غموضا من النص ذاته ،حتى أن المتذوق للأدب يستطيع أن يفهم مراد الأديب ولا يستطيع أن يفهم مراد الناقد، وما لشيء إلا لأن الناقد استخدم مصطلحات ومفردات غربية، أو حاول تطبيق منهج غربي على نص عربي فأكسبه غموضا وتعقيدا، كما هو الحال مع الناقد كمال أبو ديب في دراسته التي حملت عنوان (إضاءة ملامح من بنية القصيدة عند أبي نواس بتطبيق المنهج البنيوي) فقد قام بتطبيق المنهج البنيوي [٢] على بعض قصائد الشاعر العربي أبي نواس فجاءت دراسته حافلة بالتكلف والتناقض ومزينة بالرسوم والسهام والجداول، إن قرأتها زادتك تعقيدا وغموضا، وجعلتك تزهد الأدب ونقده . [٣]

نرى ذلك في شرحه لقصيدة أبى نواس التي مطلعها : (مجزوء الرمل)

---

[١] . قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، ص ٣٣٥.

[٢] ـ البنيوية وإن كانت منهجا نقديا إلا أن اللفظة ذاتها تعد مصطلحا غربيا ، والاختلاف حولها كمصطلح قائم في العربية ، فهي تقابل بالبنائية ، والهيكلية ، والألسنية ،والبنية ، وجميعها ترجمات للمصطلح الغربي (structuralism).ينظر ذلك : في نظرية الأدب ،شكري الماضي ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ط ١،٢٠٠٥، ص ١٥٧.

(٣) ـ من يريد الاطلاع على الدراسة يرجع إلى كتاب جدلية الخفاء والتجلي , كمال أبو ديب ص ١٦٨ـ ٢٠٨ طبعة دار العلم للملايين بيروت ـ الطبعة الثانية .

يـا ابنـة الشـيخِ أصبحينـا مـا الـذي تنتظرينـا
قـد جـرى فـي عـودك المـاءُ فـأجرى الخمـرَ فينـا(١)

فقد شرحها الناقد البنيوي **كمال أبو ديب** في اثنتين وعشرين صفحة ، مع أنها لم تزد عن التسعة أبيات ، وقد رأى أنها ترتكز على مكونين بنيويين هما : الخمرية والأطلال ، واستهدف من تحليله إيضاح الثنائيات الضدية في بنية هذه القصيدة فذكر أنها تنقسم انقساماً أفقيا إلى شريحتين تشكلان ثنائية ضدية ينفى طرفها الأول طرفها الثاني ، وهما : عالما الخمر والأطلال ، والخمر عنده تمثل حركة التمرد على الأخلاق والدين ، بينما تمثل الأطلال عالم التراث العربي يقول : "... ويرفض الطرف الأول منها الطرف الثاني ، والقيم الأخلاقية الدينية التي يمثلها، هكذا تصبح القصيدة تجسيدا لواقع التراث الأخلاقي الديني ، والتراث الشعري ، ويتجسد هذا الرفض في بنية متشابكة العلاقات.. " (٢).

وقد بلغ التكلف مداه عند كمال أبو ديب عندما وقف في شرحه للأبيات عند جملة (يا ابنة الشيخ) وحاول أن يتخذ منها أداة للمطالبة بنفي التراث الديني والأخلاقي ؛ لأن الشاعر اختار ابنة الشيخ لكي تسقيه الخمر ، يقول **كمال أبو ديب** في ذلك : " .. لماذا يختار الشاعر ابنة شيخ ليطلب منها أن تسقيه الخمرة ؟ مهما كانت الظروف التاريخية التي كتبت

---

(١) ـ العقد الفريد ، أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد ، المعروف بابن عبد ربه الأندلسي الجزء الأول ، ص ٢٢٢، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ، سنة ١٤٠٤هـ .

(٢) ـ جدلية الخفاء والتجلي ، كمال أبو ديب ، ص ١٦٨ ، طبعة دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الثانية .

فيها القصيدة ، فإنها لا تفقد العبارة دلالتها في بنية القصيدة الكلية ، يلاحظ بدءاً أن ابنة الشيخ تقع في الحيز الذي يربط الخمر بالآخر ، فهي الساقية ، وهى ابنة التراث الأخلاقي ، فهي تحمل توتراً حاداً لانتسابها إلى هذين العالمين النقيضين.. " [١]

في حين أن لفظة (الشيخ) في هذه القصيدة ليس لها علاقة بالتراث الديني أو الخلقي ؛ لأنها لم تكن لها دلالة في هذه الفترة إلا الدلالة اللغوية ، وهى بلوغ سن الأربعين ، كما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى :" ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً "[٢] ، وقوله تعالى :" وأبونا شيخ كبير" [٣] فلم يكن لكلمة الشيخ دلالة على علماء الدين أو الفقهاء كما هو معروف في عصرنا .

وهكذا نجد الناقد **كمال أبو ديب** يحاول جاهداً تطويع التراث القديم لمذهبه النقدي ، من خلال تحميل الألفاظ ما لا تتحمله ، وإن كان هو على وعي بذلك ، فهو لاشك يعلم أن لفظة (الشيخ) في العصر العباسي لم تكن تعنى عالم دين ،يدل على ذلك قوله:(مهما كانت الظروف التاريخية التي كتبت فيها القصيدة)، ومع ذلك أصرّ على كونها تعنى ما نعنيه بها في عصرنا ؛ رغبة منه في الانتصار لمذهبه النقدي، وإن كان ذلك على حساب الدين والقيم والأخلاق التي توارثتها الأمة العربية.

كذلك نستطيع أن نرى سلبية استخدام المصطلحات الغربية، وأثرها الضار على النقد العربي من خلال دراسة للناقد التونسي عبد الرحمن بوعلي

---

(١) ـ جدلية الخفاء والتجلي ص ١٧٧ ـ١٧٨ .

(٢) ـ سورة غافر ، آية :٦٧

(٣) ـ سورة القصص ، آية :٢٣.

حملت عنوان: (النص الشعري)[1] والدراسة في مجملها تقوم علي تطبيق المنهج السيميائى والسوسيولوجي علي بعض النصوص الشعرية ، وقد بدأ الناقد دراسته بذكر ملامح للمنهجين السابقين ، مع توضيح لبعض المصطلحات السيميوطيقية والسوسيولوجية ، ثم انتقل إلي التطبيق علي نص شعري لأحد الشعراء المغاربة المعاصرين .

وقد أخبر أنه سيتبع في تحليله للنص الشعري العناصر التالية :

١- النص بين الدلالية والتواصلية .

٢- تقطيع النص .

٣- المستوى التركيبي في النص .

٤- التحليل السيمى ـ السيميائى ـ للمكون السردي .

٥- الخطابة السردية .

٦- النص في ضوء التحليل السوسيولوجي .

أما النص الشعري الذي ستجرى عليه كل هذه الإجراءات فهو نص من الشعر الحر لا يتخطى الخمسة عشر سطراً لشاعر يدعى أحمد بلبداوى ، وعنوانه : (المظاهرة) . وفيه يقول :

الشارع خاو وبذيء

بسماء الشارع قرص الشمس رديء

ليس يساوى أكثر من عشر فرنكات !

(١) ـ من يريد الاطلاع على الدراسة يرجع إلى مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الأول ، بيروت عام ١٩٨٨

وثلاث سحابات عانسة تسقط مستسلمة

في الجيب الأول للسروال .

ردف مذعور في الخمسين لرئيس المجلس

يلتفت إلي وقد أومأت

بصمتي بصهيلي وبمنقاري

لزجاج المدخل

الردف المذعور تقزز

مندهشاً من صورته في

واجهة البلدية تمضغ علكة

تباً للشمس إذ لا

تملك أن تدفئ ردفاَ

في الخمسين لرئيس المجلس

وما أعتقده أن هذا النص فيه من الإسفاف ما يجعل كل متذوق للغة يجزم أن مثل هذا لا يستحق أن يسمى نصاً شعرياً ، لكن العجب أن ناقداً أكاديمياً مثل عبد الرحمن بوعلي يرى في النص هذا إجادة كبيرة من قبل الشاعر، جعلته يقضى ساعات كثيرة في تحليله وتوضيحه .

وها هو ذا يحدثنا تحت عنوان: (النص بين الدلالية والتواصلية فيقول : " يتشكل النص الشعري لأحمد بلبداوى من علامات عرفية ... وفى النص المختار ـ المظاهرة – يكسر خطية العلامات العرفية بإعطائها شكل علامات وصفية ، ولكن بالرغم من ذلك فإنه لا يتجاوز ذلك إلي إعطاء شكل للنص الشعري ، بحيث يصبح هذا النص كله علامات فردية تحيل إليه ، وقد نقول : عن نص المظاهرة ، إن الشكل الخارجي رُسم بقصدية إظهاره ، ولنقم بفحص أولى للنص ، ولكن لموضوع مباشر يجب أن ننظر إليه بغض النظر عن كل معرفة يمكن أن توجه أو تحرف تحليلنا، معنى ذلك أننا سننسى حالياً أنه نص للشاعر أحمد بلبداوى... تحليل هذا النص الشعري من زاوية النظر السوسيولوجية ، أي باعتباره كلية متجانسة العناصر أو بنية دلالية ... نجد أنفسنا مطوقين بعدة محاذير يجب التنبيه إليها ومنها:(١) – أن هذا النص الشعري ليس إلا جزءاً من إنتاج الشاعر فهو لا يملك الكفاية اللازمة للتحليل ولو كان الأمر يتعلق بالإنتاج الشعري للشاعر لأمكن ذلك . (٢) – أن هذا النص لا يعبر بشكل دقيق عن الوعي بنوعية القائم والممكن، وإن كان يخفى في التعارض بين المقاطع الثلاثة الأولى ، مقاطع الإطار ، والمقطع الرابع والأخير مقطع إعادة التوازن نوعاً جنينياً من الوعي يمكن تسميته .. الوعي الجدلي .. هذا الوعي الذي يعطى القصيدة دلالة خاصة هي الدلالة المعبر عنها ضمنياً بالتجاوز أو تجاوز الإطار .(٣) – أن المنهج السوسيولوجي لا ينظر إلي الإنتاج الأدبي إلا بوصفه جزءاً من بنية الإنتاج الثقافي ، ولا ينظر إلي هذه الأخيرة إلا بوصفها جزءاً من بنية أخرى أشمل هي : بنية الواقع الاجتماعي ، وهذه

النظرة تستلزم الانتقال الدائم للناقد أو المحلل من البنية الأدبية إلي البنية الاجتماعية، ومن هذه الأخيرة إلي البنية الأدبية "(١).

وهكذا نرى الناقد عبد الرحمن بوعلي قد شغلنا بهذه المصطلحات بدون أن ننال ثمرة حقيقية من وراء ذلك سوى العناء من هذه الإجراءات المعقدة، حتى لكأننا نقف أمام كلمات براقة دون معنى مستقيم، فكلمات (الاطار، ونوعا جنينيا ،والوعي الجدلي، بنية الانتاج الثقافي، والسوسيولوجي)كلمات توهمك، لكن في الحقيقة لا تفهم منها معنى مفيدا، وكذلك نلمس هذه التعقيدات في تفسير الناقد بوعلي لبعض الألفاظ الواردة في النص السابق حتى تتماشى مع تحليله السيميوطيقى، ومن ذلك تحليله لجملة (وثلاث سحابات عانسة تسقط مستسلمة في الجيب الأيمن) فهو يرى أن هذه الجملة الشعرية – على حد قوله – لا نستطيع أن نفهمها إلا إذا عرفنا السمات المعجمية للألفاظ : ثلاث، سحابات، عانسة ، مستسلمة، الجيب الأيمن، ولهذا فهو وضح المعاني المقصودة منها علي هذا النحو، ثلاث: عدد يشير إلي القلة وله حمولة دينية، والسحابات: غيوم من مميزاتها كظواهر طبيعية أنها سبب المطر، ثم يعقب بأن الشاعر لا يحيلها كذلك وإنما يضيف إلى السحابات علامة ثانية تفيد العقم، وهى لفظة (عانسة) فالمرأة العانس – في نظره – هي المرأة التي تبقى بلا إنجاب والعلاقة بين المرأة العانس والسحابة العانس هي في النتيجة، لأن المرأة العانس لا تنجب الأطفال، والسحابة العانس لا تنجب المطر، وهذا التناقض في نظر بوعلي يسرى على النص الشعري كله .

(١)- مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الأول ، بيروت عام ١٩٨٨ .

وبالنظر فيما قاله الناقد عبد الرحمن بوعلي نجد تحكماً وتعسفاً يحاول فيه الناقد فرض فهمه للنص على الآخرين فمن قال : إن العانس مرادف للعاقر، أو أنها نقيض للولود ؟ المعنى الذي يحاول فرضه الناقد غير صحيح ؛ لأن العانس تناقض ذات الزوج ولا يلزم أن تكون ذات الزوج ولودا، فالمرأة بعد أن تتزوج إما أن تنجب وإما أن تكون عاقرا لكن الناقد يجبرنا على قبول مراده من هذه اللفظة ؛ ليتم له تحقيق الثنائيات الضدية التي ولع بها ، ولهذا لم يُعرف لنا السمات المعجمية لباقي الألفاظ التي أخبر أنه سيفسرها؛ والسبب أنه لم يجد تجاهها تبريراً يحقق له حقيقة التعارض في هذه الجمل الشعرية .

وتعقيبا على ذلك أقول: إن الشيء الذي استوقفني في دراسة عبد الرحمن بوعلي وغيرها من الدراسات النقدية الحديثة التي تقوم علي النقد الغربي ومصطلحاته، أنه لا مكان فيها لمصطلحاتنا النقدية الناصعة كالكناية والاستعارة والتشبيه، فهذه المصطلحات العربية الغنية بها لغتنا العربية تبدو عند أصحاب الدراسات الحديثة بضاعة كاسدة، حتى أننا لم نعد نرى مثل هذه المصطلحات في الدراسات النقدية الحديثة مع أننا لا يمكن أن نتذوق النصوص الأدبية إلا من خلال المصطلحات البلاغية السابقة ؛لأنها ـ في رأيي ـ تبرز جمال لغة القرآن الكريم، ولو طبقنا الاستعارة على الجمل التي فسرها الناقد بوعلي لاستطعنا فهم المعنى بسهولة ويسر، فالسحابات في الجملة السابقة استعارة تصريحية، ولفظة العانس بها استعارة مكنية، حيث شبه السحابة غير المرغوب فيها بالفتاة العانس التي لا تجد لها خاطباً، بجامع عدم الرغبة في كل منها ،ومن هنا يمكن تفسير كل هذه الألفاظ من خلال تطبيق المعايير العربية التي تعد

ميراثاً للأمة العربية، ودليلاً على قوة وجمال لغتها التي نزل عليها أعظم كتاب سماوي وهو القرآن الكريم، وإن كنت أضن بمصطلحاتنا العربية أن تطبق علي مثل هذا اللغو الذي لا معنى له ولا هدف .

و أخيرا أقول: إن واقع الدراسات النقدية الحديثة يؤكد أن النقاد الإتباعيين قد حولوا النقد إلي جداول وإحصاءات ورسوم بيانية ، وتناسوا تراث أمتهم، وهذا خطر أظنه كبيرا؛ لذا يجب علينا أن نتصدى لمحاولات هؤلاء الإتباعيين المبهورين بكل ما هو أجنبي، ودعوتهم إلي العودة إلي التراث العربي، والعمل علي تطويره بما يتماشى مع عصرنا الحديث، ولا مانع من الاطلاع على الثقافة الغربية والاستفادة منها ، لكن بالقدر الذي يحفظ كينونة هذا التراث العربي .

المبحث الثالث

(جذور المصطلح النقدي الغربي في التراث العربي)

تأثر النقد العربي الحديث بالنقد الغربي فحاكاه في جل مصطلحاته ومناهجه، ونظرا لأن التأثير كان مقرونا بالانبهار والاعجاب الشديدين فقد انتشرت المصطلحات المستوردة في الدراسات العربية النقدية بصورة كبيرة ، دون محاولة البحث عن إيجاد مصطلح عربي يقابل المصطلح الغربي أو يؤدي معناه ، بل أكثر من ذلك أن بعض النقاد العرب آثر التعبير بالمصطلح الغربي ووجد فيه مزية ، وإن وجد ما يعادله في نقدنا العربي كنوع من إظهار الثقافة والمعرفة ، مع إن المعتبر في الحياة الأدبية والنقدية أنها نابعة من البيئة التي تعايشها ، ... ومن يطالع البواكير الأولى لتشكل المصطلحات النقدية العربية يجد أنها ترجع في أصلها إلى الحياة العربية في جانبيها الاجتماعي والثقافي ، فمصطلح (البيت ،العمود) هو في حقيقته مستمد من عالم الأعراب المتمثل في حياة البدو التي تعد الخيمة هي البيت المهم عندهم وعلاقة الخيمة بالعمود هي علاقة الوجود ؛إذ لا يتصور وجود الخيمة بلا عمود ، فهي ألفاظ وليدة بيئة عربية خالصة ،كما أن مقاييس الجمال والرداءة هي الأخرى مستخلصة من الهيئة التي يبدو عليها العربي من عالم ثيابه ،لذلك تأتي أحكامهم النقدية مصاحبة ألفاظ من مثل : حسن الديباجة ، رقيق الحواشي ، البيت مهلهل ، وكلها مصطلحات عربية مرئية في البيئة العربية ، والأمر نفسه مع مصطلحات مثل :(النقائض، والسرقات الشعرية) فهي مستمدة من ظروف الصراع القبلي التي عايشتها القبائل العربية ،ناهيك عن ألفاظ مثل : الطبع والصنعة المعاضلة والفحولة فجميعها مرتبطة بالبيئة العربية فعندما نقول : هذا شاعر فحل، فالمعنى

المقصود أنه قوي في شاعريته وأنه يمتلك أدواته ، والأمر مفهوم ومسلم به، لكن لو أن هذا المصطلح وليد عصرنا الحاضر لما سلم مبتدعه من النقد والهمز واللمز .[١]

هكذا نجد أن المصطلحات النقدية العربية القديمة تحمل معطيات الحياة العربية القديمة في جاهليتها، ومع تقدم الزمن في عصر الانحطاط تزود النقد بمصطلحات فلسفية كانت هي الأخرى وليدة الحياة العربية وفي هذا الصدد يقول د/ رجاء عيد :" مع تقدم الزمن وتعمق التجربة الثقافية تزود النقد بمصطلحات فلسفية مثل (المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر منها كالصورة)،ومثل التشبيهات العضوية (الكلام جسد وروح ،فجسده النطق وروحه معناه)ثم لامست الفلسفة النقد على يد حازم القرطاجني في مصطلحات مثل : القوة المائزة ، والقوة الصانعة والقوة الحافظة ، وهذا عدا عدد من المصطلحات الأخلاقية مثل (الصدق والكذب والمبالغة والغلو والإغراق ناهيك عن المصطلحات البلاغية من استعارة وتشبيه وإدماج وإرداف وإطناب وما أضافته في تزيد وافتعال ..."[٢]

مما سبق نستطيع أن نقول : إن النقد العربي القديم لم يعان من أزمة في صياغة المصطلحات واستخدمها ،ولم يستورد من غيره كما هو الحال ، بل جاءت مصطلحاته مؤصلة تعبر عن خصوصية عربية بحتة ،بعيدة عن الالتباس ، وهي واضحة ومفهومة متفق على صحة استعمالها في سياقها الأدبي والنقدي ، تتفق في جلها على عربية اللغة وعربية الخطاب ،ولا شك أن النقد القديم يمتلك منهجا ومصطلحا كافيا لإنتاج مادة نقدية تواكب

(١) . ينظر : المصطلح في التراث النقدي ص ٦

(٢) . المصلح في التراث النقدي ، د رجاء عيد ، ص ٦

الحركة النقدية في كل عصورها ، غير أن هذه المصطلحات تتناثر داخل الدراسات التطبيقية ، وهي بحاجة إلى تمهل حتى يمكن جمع شتاتها .

ومنه فإنه ليس من الصواب إهمال تراث العرب المصطلحي ، وعدم الركون إليه ؛لأنها لم تأت من فراغ ،ومن المسلم به أن النقد العربي غني بمصطلحاته وأدواته التي تمكن النقاد والأدباء العرب من صياغة مصطلحات نقدية عربية خالصة دون أن يلجؤوا إلى المصطلحات الغربية المستحدثة بطريقة غريبة لا تتناسب وطبيعة اللغة العربية خاصة وأن " الأدباء والمؤلفين شرعوا في وضع المصطلحات النقدية منذ عهد مبكر ،واتفقوا على كثير منها وشاع استعملها بين الناس حتى ادعوا بأن المصطلحات القديمة فيها غنى عن السعي وراء المستحدث"[١] وإن لم يكن فيها غنى فلماذا لا يكون عندنا مصطلحات عربية مولدة من اللغة العربية ومن النص الأدبي ؟ بدل تلك التي تأتينا مستوردة ونجهد أنفسنا في إيجاد معنى عربي لها ،ونختلف حولها كثيرا ، ويجتهد كل ناقد مجيد للغة الغربية في اتحافنا بمعنى جديد لمصطلح غربي ربما ولى عليه الزمن ومات في لغته قبل أن يولد في نقدنا الحديث.

وعليه فمن يتتبع المصطلحات الغربية المنتشرة في نقدنا العربي الحديث يجد أن لها جذورا في نقدنا القديم، فقد عرف النقاد العرب القدامى كثيراً من الظواهر النقدية التي تشدق بها الغربيون، وادعوا أنهم أول من ابتكروها ، من ذلك ظاهرة : (**تراسل الحواس**) فقد ادعى الرمزيون أنهم أول من عرفها ، في حين أن هذه الظاهرة النقدية موجودة في تراثنا النقدي

(١) . في المصطلح النقدي ، احمد مطلوب ، المجمع العلمي، بغداد، سنة ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى، ص ١٣. ١٤

القديم تحت مسمى آخر وهو:(**تناوب الأعضاء**) ومن يرجع إلى كتاب : الأفضليات ، لابن الصيرفي المتوفى عام (٥٤٢هـ)(١) يجد أمثلة لذلك كثيرة ، ومن أحسن ما جاء فيه .

قول أبى الطيب:

فـي جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ غبارُهُ فكأنّمَـا يُبْصِـرْنَ بـالآذانِ((٢))

(الكامل)

وقول الشريف الرضي :

عزّنِـي أنْ أَرى الـدِّيار بعيـني فلعلـي أرى الـدِّيارَ بسمعـي

(الخفيف)

وقول الحسن بن عبد الصمد :

تُعطـى وسَـمعُكَ بـالمَلامِ مشّنـفٌ فكـأنَّ راحتـكَ الكرِيمـةَ تسمـعُ(٣)

(الكامل)

---

(١)ـ الأفضليات ، تأليف أبى القاسم علي بن منجب بن سليمان ، المعروف بابن الصيرفي ، تحقيق د. وليد قصاب ، ود.عبد العزيز المانع ، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

(٢) ـ ديوان أبى الطيب المتنبي ، بشرح البرقوقى الجزء الرابع ، ص ١٧٦، مطبعة السعادة سنة ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م من قصيدته المشهورة في مدح سيف الدولة : الرأى قبل شجاعة الشجعان

(٣)ـ البيت هذا وسابقه في الأفضليات ، الجزء الأول ، ص٤٢.

فنحن نرى **تناوب الأعضاء** ـ الذي يَعرفه الرمزيون بـ **(تراسل الحواس)** في قول الأول : يبصرن بالآذان ، وفي قول الثاني : أرى الديار بسمعي ، وفى قول الثالث : راحتك الكريمة تسمع ، وأمثلته في الأفضليات وفى غيرها من كتب الأدب والنقد كثيرة، وفيه يقول صاحب الأفضليات " ... وهو مما يدل على تجويد الشاعر وقوة تصرفه ، ومضاء خاطره وقلة توقفه.. "(١).

لكن على الرغم من ذلك نجد نقادنا المعاصرين يتحدثون عن تراسل الحواس وربما أكثرهم لا يعرف شيئاً عن **تناوب الأعضاء** ، أو ربما عرف وغض الطرف عن ذكره .

كذلك من الظواهر النقدية التي عرفها النقاد القدامى وتشدق بها الغربيون ظاهرة : **(الخطأ في الرواية)** أو **الانحراف المقصود** ، فقد زعم أنصار النقد الجديد أن مذاهبهم هي التي اكتشفتها ، في حين نجد في تراثنا النقدي أمثلة تصلح للدلالة على معرفة القدماء بها .

من ذلك ما ذكره ابن الصيرفي في إحدى رسائل الأفضليات : من أن **هشاماً الأحول** قال : كنا عند الأصمعي فأخذ في شعر عُبيد الله بن قيس الرقيات ، فجعل ينشد حتى قال:

عادَ لَهُ مِن كَثيرَةِ الطَرَبُ فَعَينُـــهُ بِالـــدُموعِ تَنســـجمُ

(المنسرح)

(١)ـ الأفضليات ، ص ٢٢.

وإنما هي تنسكب , وقال يا فتيان أمرُوها على الميم . قال : فأَمرها ونحن معه ، يقول ونقول علي الميم حتى بلغنا قوله :

مـا نَقَمـوا مِـن بَنـي أُمَيَّـةَ إِلّا أَنَّهُـم يَحلُمـونَ إِن غضبـوا

فأراد قافية على الميم ، فلم يقدر عليها .

والمملوك يقول : إن من أعجب الأشياء توقف الأصمعي خاصة في تقفية هذا البيت على الميم مع ما يروى عنه من قوله : إن الحشمة في كلام العرب بمعنى الغضب وحكايته عنهم ، أن ذلك لمما يحشم بني فلان ، أي يغضبهم ، فكان يلزمه أن يقول حشموا ، على أن أحسن ما قفي به هذا البيت على الميم ما اقتضاه صدره فيقال :

مـا نَقَمـوا مِـن بَنـي أُمَيَّـةَ إِلّا أَنَّهُـم يَحلُمـونَ إِن نقمـوا

ويقال في البيت الثاني :

وأنهـم معـدن الملـوك فمـا تصـلح إلا عليهـم الأمـم

ويجعل الأمم عوضاً عن العرب..."(١).

أيضـا مـن المصـطلحات التـي تشـدق بهـا الأسـلوبيون وعـدوه جـوهر الإبداع **(الانزياح)** وهومن المصطلحات غير المستقرة ،وعلى الرغم من كثرة الاختلافـات التـي صـاحبت المصـطلح فـي أصـل منبعـه إلا أن الدراسـات

(١) ـ ينظر: الأفضليات ، ص١٤٥– ١٤٦ ، والمنهل عدد ٥٩٤ ، ص ٤٢.

العربية احتفت به كثيرا[1]، وقد قسمه النقاد إلى : الانزياح الدلالي ، والانزياح التركيبي ، والانزياح الاستبدالي، والانزياح الأسلوبي ، والانزياح في فضاء النص ، وهم يظنون أنهم قد أتوا بما لم يأت به الأوائل ، غير أنهم لو تدبروا كتب اللغة والبلاغة والنقد وجدوا المفهوم المزعوم في بطون هذه الكتب منذ وقت بعيد تحت مسمى العدول ،فها هو ذا سيبويه يفرد بابا في كتابه (الكتاب) يتحدث فيه عن **العدول** ويُعنّون له (هذا باب ما جاء **معدولا** عن حده من المؤنث كما جاء المذكر **معدولا** عن حده)[2].ويعطي له أمثلة كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

والأمر نفسه فعله ابن جني في كتابه الخصائص ،وعقد له بابا سماه (باب في **العدول** عن الثقيل إلى ما هو أثقل منه لضرب من الاستخفاف)[3].

كما استعمل عبد القاهر الجرجاني مصطلح **العدول** حين تحدث عن الكلام الفصيح فقال : " اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم إلى قسمين : قسم لا تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى اللفظ ، فاقسم

---

(1) ـ من بين هذه الدراسات :الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ، أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت لبنان ٢٠٠٥م ، وكذلك من الدراسات الأكاديمية رسائل جامعية حملت عنوان : الانزياح في شعر محمود درويش ، والانزياح في شعر سميح القاسم ، وغيرها كثير .

(2) ـ الكتاب ، أبو بشر بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة الجزء الثالث ، ص٢٧٠.

(3) ـ الخصائص ،أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ،ط ١، بيروت لبنان، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م ، الجزء الثاني ص٢٦٢.

الأول: الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة ،وكل ما كان فيه على الجملة ،مجاز واتساع **وعدول** باللفظ ن الظاهر " [1].

كل هذا يؤكد أن مفهوم الانزياح موجود في كتبنا العربية منذ القدم ، غير أن نقادنا العرب المعاصرين أو سابقيهم لم يعطوه اهتماما مثلما فعلوا مع المصطلح المستورد (الانزياح) ، فإذا كنا قد رأينا دراسات حملت اللفظة الغربية فهل عسانا نرى دراسات تحمل اللفظة العربية ؟ وبدل أن نقول : الانزياح في شعر ... نقول : العدول في شعر ... لعلنا .

وهكذا نجد أن ما يظنه الاتباعيون مستحدثا هو في الحقيقة له أصول في النقد العربي القديم ، وكان يمكن البناء على هذه الأصول ، وتطويرها مع ما يتماشى وعصرنا الحديث ، بدل أن نتجاهل تراثنا النقدي ، ونتسابق في الأخذ من النظريات الغربية التي جنت على الأدب والنقد العربيين أكثر مماَ جنتْ لهما .

لذلك ينبغي علينا نحن العرب أن نعود إلى النقد القديم ، ونحاول تطويره وفق حياتنا العربية ولغتنا الأصيلة ،ونحن بذلك لا نرفض الحداثة كلية ، أو ندعوا إلى الانغلاق ، وإنما نرى أن النقاد المعاصرين بحاجة إلى أن يكونوا ملمين بالنقد القديم من خلال قراءته قراءة متأنية ، ثم يأخذوا من الحداثة ما من شأنه أن يخدم أدبنا ومجتمعنا بعيدا عن المصطلحات الرنانة والانبهار الذي يضيع الهوية العربية.

---

[1] ـ دلائل الإعجاز ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

فنحن لا نستطيع أن ننكر جهود أسلافنا القدماء ؛ لمجرد انبهارنا بثقافة الغرب كما فعل الاتباعيون ، وذلك لأن تراثنا النقدي كتبه أعلام عرفوا أسرار اللغة العربية ومواطن إعجازها ، وما دام الإبداع العربي يكتب باللغة العربية ، فلن نستطيع أن نقيمه إلا من خلال قواعد وضوابط عربية ، أما أن نأتي بضوابط ومذاهب غربية لنطبقها على إبداع عربي ، فهذا ـ من وجهة نظري – عبث .

والعبث كل العبث أن نجد ناقداً عربياً يتحدث عن نص مكتوب باللغة العربية ؛ فيستشهد بمقولات رواد الغرب ، من أمثال: **فيكتور هيجو** ، أو **ألن روجر** ، أو **بارت رولان** ، أو **إربك أندرسون** ، أو **ديكارت** ، أو **توماس** ، أو غيرهم من النقاد الغربيين وفى الوقت ذاته يتجاهل روادنا من نقاد العرب ، فلا نرى ذكراً **لعبد القاهر الجرجاني** – ومعلوم عبقريته – أو **لابن جني** – ومعلوم عظمته – أو **للجاحظ** – ومعلوم قوة عقله وبلاغته – أو **ابن خلدون** – ومعلوم فكره ـ أو غيرهم من نقاد وعلماء اللغة العربية الذين تربوا علي سحرها وجمالها ، فعلموا من سرها ودقائقها ما لا يعلمه الغربيون عنها .

ومن هنا أقول : ينبغي علينا ـ نحن العرب ـ أن نتمسك بتراثنا النقدي، ونفتخر بعروبتنا، وألا نكون مقلدين أو تابعين لأمم كانت في السابق تتعلم من حضارتنا ، فنحن نملك أدوات نقدية تراثية ، ومصطلحات عربية غنية ، تستطيع أن تحلل النصوص تحليلاً يكشف ما لا تكشفه غيرها من المصطلحات الغربية ، وعلينا أنْ ننفر من المصطلحات الغربية المستوردة بدل أن ننفر من تراثنا ، فالعالم الآن يقاوم السيطرة الثقافية التي تعني التبعية والعجز عن المواجهة والمناقشة ، وقد سبق أن تنادى المثقفون

والأدباء الفرنسيون بمقاومة السيطرة الوافدة إليهم من عواصم غربية أخرى ، كما دعا المثقفون البريطانيون بتنقية اللغة الإنجليزية ولغة الإعلام من الكلمات الفرنسية ....

ومن ثم أقول: أليس من حقنا ـ نحن العرب ـ أن نتيح المجال لأدبنا العربي الأصيل ، ونقدنا البلاغي القويم أن يحتل مكانه ، ويقوم بعمله في كشف النصوص وتذوقها ، بدلاً من هذا العناء والتكلف المهين الذي يمارسه أتباع نظريات النقد الجديد في مجتمعاتنا العربية ؟!....

وأخيرا:

أقترح إنشاء **مجمع أدبي نقدي عربي** يتولى أمر المصطلحات النقدية والإبداعات الأدبية ، فيقوم بتنقية المصطلحات التي تناسب النقد والأدب العربيين وينشرها بمعنى عربي واحد ـ إن كان ضروريا وجود المصطلح النقدي الغربي ـ حتى لا يحدث اختلاف بين النقاد ، كما يقوم بقراءة التراث النقدي القديم ، ويعمل على إحياء المصطلحات النقدية القديمة التي لا يعرفها كثير من نقادنا المعاصرين، أو يقوم بتوليد مصطلحات نقدية عربية من خلال النصوص العربية القديمة والحديثة كما يتولى أمر الإبداعات الأدبية ، فيرجع إليه كل أديب قبل نشر إبداعه، فإن كان الإبداع موافقا مقاييس اللغة ، ومراعيا قيم وأعراف المجتمع سمح المجمع الأدبي النقدي له بنشره ، وإلا فلا يسمح له بالنشر ، فمن شأن ذلك أن يضبط الحركة الأدبية والنقدية ، ويُربي الذوق العام على الجودة الأدبية ، بدل أن يتربى علي الإسفاف الأدبي الذي أصبح موجودا في المجتمع العربي بصورة تدعو إلى الأسى.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ....

فبعد هذا العرض لموضوع :(المصطلح النقدي الغربي وأثره في الدراسات النقدية العربية بين القبول والرفض) ،يمكن الآن أن نستخلص أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة ، وإجمالها في الآتي:

١ ـ ينبغي علينا نحن العرب أن نتمسك بتراثنا النقدي، وألا نكون مقلدين، فنحن نملك أدوات نقدية تراثية، ومصطلحات عربية غنية، تستطيع أن تحلل النصوص تحليلا يكشف ما لا تكشفه غيرها من المصطلحات الغربية المنشأ.

٢ ـ أن النقد العربي ليس بحاجة إلى المصطلح الغربي، وأن اقحامه في الدراسات العربية جنى عليها ،وأفقدها رونقها ،وأكسبها غموضا وتعقيدا .

٣ ـ ضرورة إيجاد مصطلح نقدي عربي يكون نابعا من تراثنا وأدبنا العربي ؛ لأن المصطلح النقدي المخول إليه محاكمة النص الأدبي ينبغي أن يكون مولدا من النص واللغة والمجتمع ، لا دخيلا عليه.

٤ ـ إذا ترجم الشعر العربي إلى لغة أخرى خرج من دائرة الشعر ، ولا يصح أن يطلق على ترجمته شعرا ؛ لأنه بترجمته فقد كل أصول الشعر العربي ، والمتمثلة في الوزن والقافية، والتجانس وجرس الحروف، والعروض والضرب .. وغيرها.

٥ ـ كثير من المصطلحات الغربية المنتشرة إن بحثت في أصل معناها وجدت جذورها في نقدنا العربي القديم مثل تراسل الحواس والانحراف المقصود والتناص وغيرها .

وأخيرا أقترح إنشاء مجمع أدبي نقدي ـ على غرار المجمع اللغوي ـ يتولى أمر المصطلحات النقدية، والإبداعات الأدبية، ويتولى أمر توليد مصطلحات نقدية عربية خالصة .

هذا والله الموفق والهادي إلى سواء لسبيل.

د / هاني بلال

المصادر والمراجع

- الأدب وخطاب النقد، عبد السلام المسدي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت . لبنان الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٤م .

- الأدب وفنونه ،محمد مندور ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، مدينة السادس من أكتوبر ، ط٢ ، سبتمبر ٢٠٠٢م.

- الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي ،مجمع اللغة العربية ،دمشق.

- الاشتقاق والتعريب ،عبد القادر مغربي ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩١٧م.

- إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد ، يوسف وغليس ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م.

- الأفضليات ، تأليف أبى القاسم علي بن منجب بن سليمان ، المعروف بابن الصيرفي ، تحقيق د/ وليد قصاب ، ود/عبد العزيز المانع ، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ، سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .

- التعريفات ، الشريف الجرجاني ، تحقيق محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة، القاهرة .

- جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب ص ١٦٨ـ ٢٠٨ طبعة دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الثانية .

- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ،د/عبد الرحمن ياغي، المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

- الخصائص ،أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ،ط ١، بيروت لبنان، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م ، الجزء الثاني.

- ديوان أبى الطيب المتنبي ، بشرح البرقوقى الجزء الرابع، مطبعة السعادة، سنة ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م

- دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ ١٠٥٢م) ، تحقيق محمد عبده وحمد محمود الشنقيطي، دار المعرفة ،بيروت ١٩٨١م ، ص ٤٦٨.

- العقد الفريد ، أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد ، المعروف بابن عبد ربه الأندلسي ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى ، سنة ١٤٠٤هـ .

- عناصر اللغة العربية وخصائصها , خالد العريني , طبعة وزارة المعارف , المملكة العربية السعودية، والبحث منشور الكترونيا على الرابط التالي :
https://arablib.com/harf?view=book&lid=2&rand1=T2h.qQFJ6KnhFYVhz&rand2=SzhBRm9OTzFqOSVs

- في المصطلح النقدي ، أحمد مطلوب، المجمع العلمي، بغداد، سنة ٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

- قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الخامسة ، مايو ١٩٨٧م.

- القول الشعري (منظورات معاصرة) د/ رجاء عيد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية.

- الكتاب ، أبو بشر بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة الجزء الثالث .

- اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، فاضل ثامر، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م .

- مجلة البيان ، العدد السابع ، تاريخ الإصدار الأول من سبتمبر ١٨٩٧م .

- مجلة مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الأول ، بيروت عام ١٩٨٨ .

- مشكلة المصطلح في النقد الأدبي الحديث ،حماده أبو شاويش ،مجله كلية التربية/ المجلد الأول / العدد الأول / يناير ١٩٩٧م.

- المصطلح في التراث النقدي، د/ رجاء عيد، منشأة المعارف– الإسكندرية ٢٠٠٠م.

- مقدمة ابن خلدون ، تأليف بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ ، ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م) ، وضبط المتن ووضع الحواشي والفارسي أ/ خليل شحاده ، مراجعة د . سهيل ذكار، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر عام ١٤٣١ هـ – ٢٠٠١ م.

- مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ،ديفيد ديستش ، ترجمة محمد يوسف نجم مراجعة إحسان عباس ، دار صادر بيروت.

- موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، محمد بن علي القاضي التهانوي المتوفى سنة ١٥٨هـ ،تحقيق د/علي دحروج مكتبة لبنان ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ،أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط١، بيروت لبنان ٢٠٠٥م .

- نقاد الأدب ، محمد مفيد الشوباشي ، د/حسن فتح الباب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م.

- النقد الأدبي الحديث في القرن العشرين، جان ايف تاديه، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحديث، الطبعة الأولى١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع
المقدمة
التمهيد
المصطلح النقدي المفهوم والإشكال
المبحث الأول :
(المصطلح الأجنبي بين القبول والرفض)
خصوصية اللغة.
خصوصية الأدب العربي.
خصوصية المجتمع.
المبحث الثانى :
(أثر المصطلح النقدي الوافد في الدراسات النقدية العربية الحديثة)
المبحث الثالث :
(جذور المصطلح النقدي الغربي في التراث العربي)
الخاتمة
فهرس الموضوعات